صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

رؤيــة نظريــة واستطلاع ميدانــي التحليل النفســي لشخصية العسكري الأمريكي في العراق

فارس كمال نظمي

الجندي الأمريكي يتعامل مع المواطن العراقي بمنهج (رامبو) الذي يعتمد الغطرسة والتعالي.
منظمة مراقبة حقوق الانسان

وطأ العسكري الأمريكي أرض العراق في آذار ٢٠٠٣م،ولديه قناعة نفسية متأتية من الخطاب السياسي لقيادته،بأنه جاء (محرراً) لهذا الشعب المظلوم،وجالباً لقيم (الديمقراطية) و (حقوق الانسان) له.إلا أنه سرعان ما بدأ يغير مفهومه عن ذاته،بتأثير إقرار إدارته نفسها فضلاً عن الشرعية الدولية،بأن وجوده قد اتخذ رسمياً صفة (المحتل)،فترك ذلك أثراً مباشراً في سلوكه تجاه العراقيين مجرداً إياه من خصائص أخلاقية (رفيعة) حاول أن يتقمصها عبثاً في بدايات وجوده في العراق.وإذا ما أضفنا الى ذلك القرار السياسي الأمريكي بتجاهل الاتجاهات الوطنية الرافضة للاحتلال،ومحاولة اذلال الكبرياء الوطني العراقي،وتجنب تقديم أي مكاسب أو إصلاحات اقتصادية أو اجتماعية حقيقية للعراقيين،وتبني خيار العنف الأقصى حيال الفئات المسلحة المعارضة في أرجاء مختلفة من البلاد،يتضح عند ذاك بعض العوامل المفسرة لبروز مجموعة من الظواهر السلوكية غير السوية لدى العسكريين الأمريكان في العراق،سنتناولها تباعاً بعد قليل.

يرى النفساني اللبناني (د.محمد أحمد النابلسي) أن الجندي الامريكي يدرك ان سياسة بلاده تقوم على جلب المكاسب عن طريق التهديد بالقوة.فإذا لم ينجح التهديد فهي تلجأ الى الترويع بإستخدام تفوقها التسليحي.ولذلك فهو يعتقد أن قيادته لا تزج به بأكثر من رحلة صيد،وأن دوره القتالي معدوم المخاطر.من هنا كانت صدمة الجندي الأميركي في العراق عنيفة،إذ وجد نفسه أمام أخطار حقيقية وأمام مواجهات مباشرة تكاد تشل تفوقه التقني وتجهيزه بثلاثين ألف دولار من المعدات لحمايته.هذه الحالة تفسر لنا قائمة المظاهر الصدمية النفسية والسلوكيات غير السوية المتبدية لدى الجنود الأميركيين في العراق،والتي من أهمها –حسب تحليل الدكتور النابلسي – ما يأتي (*):

حالات الإنتحار الوبائية بين الجنود الأميركان

سربت وسائل الاعلام أدلة عديدة عن حالات انتحار واكتئاب وتنامي لمخاوف الموت والرغبة في الهروب من العراق،إلا أن الرقابة والتعتيم الاعلامي التي تمارسها الادارة العسكرية الأمريكية حالت دون الكشف الواضح والتفصيلي عنها.

زيادة الإقبال على المخدرات والكحول

وجدت زجاجات ويسكي فارغة في الطائرات والعربات الأمريكية.كذلك رصدت حالات منتشرة من إدمان المخدرات على أنواعها،إذ تمت معاقبة عدد من الضباط الأميركيين لاتجارهم بهذه المواد.فمن المعروف أن تعاطي المخدرات شائع بين الشباب الأمريكي ولا يستثنى الجنود منهم،وبعض هؤلاء يقاتلون وهم تحت تأثير المخدر بما يدعم تكرار وكثافة الممارسات الإنحرافية للجنود الامريكان.

ضعف الجاهزية القتالية

تنخفض أهلية الجنود الأمريكان للقتال في العراق تدريجياً بسبب تداخل الظروف المناخية الصعبة مع حرب العصابات،ومع الجهل التام بثقافة البلد وتقاليده.كل ذلك يجعل الجندي الأمريكي في حالة خوف دائم وإرهاق نفسي ضاغط،الأمر الذي يدفعه للاستعجال في إطلاق النار ولممارسة العدوان لمجرد شعوره الذاتي بالخطر،فضلاً عن الإرهاق الناجم عن عدم تبديل الفرق الأميركية المقاتلة وبقائها في ساحة القتال مدة أكبر من قدرتها على الاحتمال.

تفاقم الفساد داخل الجيش الأمريكي

من مظاهره الصراعات على المغانم،إذ سجلت عمليات فساد واسعة في الجيش الأمريكي،بدءاً من سرقة البيوت لغاية سرقة الآثار،مروراً بتجارة المخدرات وغيرها من مظاهر الفساد التي تتخللها عادة الصراعات والتصفيات الجسدية بين هؤلاء العسكريين،مما تسبب بإقالة عدد من كبار الضباط الأمريكان من مناصبهم.

التمييز داخل الجيش الأمريكي

يتمثل بالتمييز العنصري والطبقي بين الجنود الأميركيين، بخاصة التمييز الممارس على المقاتلين الراغبين في الحصول على الجنسية الأمريكية،فهؤلاء يشكلون نسبة (٢٤٪) من تعداد الجيش الأمريكي.كما أن غالبية الجنود الأمريكان في العراق ينتمون إلى الطبقات الأمريكية الفقيرة.

وتفاعلاً مع تحليل النابلسي العسكري الأمريكي في عقله الباطن يرى نفسه (آثماً) فينكر ذلك بلجوئه الى مزيد من القسوة والاستباحة

هذا،واستكمالاً له،نقترح اضافة ثلاثة مظاهر سلوكية غير سوية أخرى الى مجمل سلوك المؤسسة العسكرية الأمريكية في العراق،هي:

السلوكيات السايكوباثية

ويقصد بها ممارسات التعذيب النفسي والجسدي ضد المعتقلين العراقيين،سواء تلك التي تم الكشف عنها بالوثائق في سجن أبي غريب ام تلك التي يتحدث عنها المعتقلون المفرج عنهم،فضلاً عن الممارسات العدوانية اليومية في شوارع المدن العراقية،كاصطدام الدبابات الأمريكية المتعمد بالسيارات المدنية وتحطيمها بالمشي فوقها،مأهولة بالناس كانت أم خالية،او اقتحام البيوت عنوة في ساعات الليل المتأخرة مروعين سكانها لا سيما من الاطفال بحجة البحث عن (الإرهابيين)،أو تحليق الطائرات المروحية بهديرها الصاخب على مدار الساعة فوق أسطح المناطق السكنية الآمنة.إن التحليل النفسي لهذه الممارسات (غير المبررة من الناحية العسكرية أو السوقية) يؤشر معاناة الشخصية العسكرية الأمريكية مما يسمى ب (التوجه العدواني ضد الآخرين) بوصفه آلية نفسية دفاعية لاشعورية،محركها هو افتقاد الأمان والرغبة في التخلص من مشاعرالرعب الذاتي بإرعاب الآخرين،وخلق جو زائف من الشجاعة الوهمية ذات الطابع الاستعراضي.

عقدة (الذنب–الاستعلاء)

كما جاء في البدء،تغيرت صورة العسكري الأمريكي عن ذاته من (محرر) الى (محتل) حسب تشريعات مجلس الأمن الدولي،مما رسخ لديه –على المستوى اللاشعوري– تصوراً آثماً عن نفسه،جعله يلجأ الى (انكار)هذا الذنب،محكوماً بسيكولوجية (الاستعلاء) أو(التفوق) الكولونيالي على الشعوب (المتخلفة)،بأن يعمد الى مزيد من القسوة والازدراء والاستباحة واللااكتراث تجاه حقوق العراقيين المدنيين،بقصف واجتياح أحيائهم السكنية والتجارية (في الفلوجة والنجف ومدينة الثورة وغيرها) كما لو كانت ساحة لمعركة تقليدية بين جيشين،مبرراً ذلك بضرورات فرض(سلطة القانون)،وبأن اللوم يقع بالأساس على الأهالي لأنهم –حسب زعمه –يسمحون بإيواء المسلحين المعارضين للاحتلال في بيوتهم.وقد يعترض القارئ على هذا التحليل،لكونه يستمد افتراضه من مفاهيم سيكولوجية مجردة،ولا ينفتح على الافتراض السياسي القائل أن ازدياد قسوة العسكري الأمريكي تجاه العراقيين انما ناجم عن تنفيذه لأوامر مخطط لها بعناية في مؤسسات القرار السياسي الأمريكي،ولا شأن لها بالمسارات الذاتية التي تتطور بها سيكولوجية الذات لديه.إن كلا هذين الافتراضين (النفسي المجرد والسياسي المجرد)،لا ينقض أحدهما الاخر،والأحرى انهما يحتاجان الى تفاعل وتكامل بينهما للخروج برؤية أكثر جدلية لعقدة (الذنب–الاستعلاء) هذه.

الجهل بالمنظومات القيمية للمجتمع العراقي

يفتقر العسكري الأمريكي الى ثقافة انسانية عامة تجعله يتعامل بتوازن وبحكمة مع منظومات القيم في المجتمع العراقي،فتراه جاهلاً الى حد كبير بالمقدسات والطقوس الدينية،والأعراف الاجتماعية،والمحظورات التقليدية لهذا المجتمع.وقد انعكس ذلك على سلوكه المباشر مع الناس في مختلف المناطق الحضرية والريفية،تاركاً في أذهانهم انطباعاً متشابهاً في مضمونه العام،مفاده: (الأمريكي معتد،إباحي،لا قلب له،ولا حرمات لديه،مرتزق جاء ليغتني من خيراتنا).

استطلاع صورة العسكري الأمريكي في العقلية العراقية

إن اختزال ما تقدم من مظاهر نفسية غير سوية، وضغطها في إطار أكثر تجريداً،يمكن أن يؤشر أولياً مجموعة من الخصائص الانفعالية والمعرفية الأساسية التي تشكل باجتماعها نمط الشخصية العسكرية الأمريكية في العراق،مستثنين منها الخصائص المهارية القتالية ببعديها البدني والنفسي،وكذلك خصائص العلاقة بين العسكريين الأمريكان أنفسهم،إذ أن ما يهمنا في هذا التحليل هو التركيز على الجوانب السلوكية والقيمية الناتجة من التماس بين هذه الشخصية والواقع الاجتماعي العراقي.هذه الخصائص المستنتجة هي:

١- قلق الموت
٢- الإرهاق النفسي
٣-افتقاد الشعور بالأمان
٤- النزعات العدوانية
٥- النزعات السايكوباثية
٦- عقدة (الذنب-الاستعلاء) المزدوجة
٧- تدني الثقافة العامة

أكثر من (٧٥)٪ يرون أن العسكري الأمريكي قاس وجبان وبلا قيم وكاره العراقيين

ولتدعيم أو نقض هذه التصورات النظرية لسيكولوجية العسكري الأمريكي،والمبنية على اسلوب الملاحظة والاستدلال،ارتأينا القيام باستطلاع ميداني لآراء بعض الشرائح المجتمعية ذات المساس اليومي بآثار الاحتلال،وصولاً الى صورة أكثر شمولية وموضوعية للخصائص النفسية التي تركها هذا العسكري في نفوس العراقيين.ومن بين أولى هذه الشرائح،تم استطلاع آراء عينة من طلبة جامعة بغداد من الجنسين،بتوجيه مجموعة من الأسئلة المحددة اليهم،فجاءت أهم النتائج على النحو الآتي:

كيف تقيّم شخصية العسكري الأمريكي في العراق ،ضمن الخصائص المحددة في الاستمارة؟

أفاد طلبة الجامعة أن العسكري الأمريكي (قاس) بنسبة (٧٥)٪،و(مغرور) بنسبة (٦٢)٪،و(جبان) بنسبة (٧٦)٪،و(معتد) بنسبة (٧١)٪،و(كاذب) بنسبة (٦٥)٪،و(بلا قيم) بنسبة (٨٦)٪،و(كاره العراقيين) بنسبة (٧٦)٪.أما النسب المتبقية، فتوزعت بين اختيار الطلبة الخصائص المناقضة لهذه الأوصاف،وبين اختيارهم مواقف وسطية.

ماذا تتوقع أن تكون عليه طبيعة العلاقة بين العراقيين والجيش الأمريكي بعد (عام) من الآن؟

توقع (٤٨)٪ من أفراد العينة أن هذه العلاقة ستصبح (قتالاً)،فيما توقع (٣٨)٪ منهم أن تكون العلاقة (صراعاً)،مقابل (١٤)٪ وصفوها بـ(خلاف).أما نسبة الذين توقعوا أن تصبح العلاقة (تفاهماً) فكانت معدومة.

هناك أطراف متعددة في الساحة العراقية ،يتهم أحدها الآخر بأنه السبب وراء حالة التدهورالأمني في البلاد. ما برأيك حجم مسؤولية كل من هذه الأطراف في حالة التدهور هذه؟

وزع طلبة الجامعة مسؤولية التدهور الأمني على الأطراف المعنية حسب هذه النسب: (القوات الأمريكية) في المقدمة،إذ تتحمل (٣٤)٪ من المسؤولية،تليها (دول الجوار) بنسبة (١٩)٪،ثم (الحكومة المؤقتة) التي تتحمل نسبة (١٤)٪،فيما بلغت مسؤولية (جماعات القاعدة) نسبة (١٣)٪،ثم (جيش المهدي) بنسبة (١٢)٪،وأخيراً يتحمل (أعوان النظام السابق) (٨)٪ من المسؤولية.

تقدم هذه الاحصاءات بمجملها إسناداً ملموساً لما طرحناه من تصورات نظرية عن شخصية العسكري الأمريكي في العراق.فالمنهجية العلمية في ظروف ميدانية عسيرة كظروف الاحتلال،تقتضي اللجوء الى مفاعلة الملاحظات النظرية الاستدلالية بالآراء والانطباعات التي يجري جمعها من الجمهور المعني مباشرة بالظاهرة المبحوثة.فقد اتضح أن صورة العسكري الأمريكي:(قاس/مغرور/جبان/معتد/كاذب/بلا قيم/كاره العراقيين/المسؤول الأول عن تدهور الأمن)،التي تم استطلاعها للتو في العقلية العراقية،جاءت مكملة ومتسقة من الناحيتين الوصفية والتحليلية مع الخصائص النفسية السبع التي سبق استنتاجها نظرياً عن هذه الشخصية.وهذا يعني بالمحصلة،ان قطيعة نفسية هي الآن في طور النضج والاكتمال،بين جماعة بشرية أنهكها الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي على أرضها،وبين حضارة وافدة - بكل تقنياتها ومشروعها العولمي- تدّعي أن رسالتها هي إحلال الحرية والعدل في حياة تلك الجماعة.وسيكون لهذه القطيعة النفسية تأثير آني ولاحق في شكل ومضمون الحراك السياسي والايديولوجي والثقافي والقيمي للمجتمع العراقي،مما يقتضي من كل الأطراف التي تدّعي حرصها على تبني حقوق هذا المجتمع في الأمن والتنمية، أن تتعامل بفطنة وواقعية مع حقيقة أن الصورة النمطية السلبية التي تكونت عن العسكري الأمريكي في العقلية العراقية،ينبغي أخذها في الحسبان في عملية التخطيط للخطوات المصيرية لهذا البلد،على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية،وإلا فلن تكون المراحل القادمة الا توسيعاً نوعياً لدائرة العنف والفوضى والفساد الحالية.

(*)سيكولوجية الجندي الأمريكي في العراق / د.محمد أحمد النابلسي / جريدة الشعب: ٢٠٠٤/٦/٤م.

في سيكولوجية الأدب

رواية الأم :أنموذج لأدب الإقناع السياسي

نادية صفر البياتي

بعيداً عن المدارس النقدية الأدبية،يمكن النظر الى النصوص الأدبية على أنها سلوك فكري اجتماعي له دوافعه وديناميات وقيمه وأهدافه.ويضطلع علم النفس الاجتماعي بالتعاون مع علم النفس الأدبي،بمهمة تحليل هذا السلوك وتبيان عناصره النفسية التكوينية والتأثيرية.ويبرز هنا مبحثان نفسيان رئيسان هما: (الدعاية) Propaganda بوصفها وسيلة لتحقيق (الإقناع) Per-suasion.ويكاد يتفق الباحثون في السايكولوجيا الاجتماعية على أن الاقناع هو عملية التأثير في سلوك الآخرين ومعتقداتهم من خلال السعي لتغيير اتجاهاتهم بواسطة الدعاية أو التعليم.أما الدعاية فهي فن التأثير النفسي يمارسه فرد أو جماعة لإحداث تغييرات مقصودة في أفكار الجمهور وسلوكياته باستخدام وسائل الاتصال المتوافرة من صحف أو مجلات أو كتب أو ملصقات أو برامج اذاعية وتلفازية أو أشرطة سينمائية أو مواقع على شبكة الانترنيت.وعلى أساس هذه التحديدات،يمكن تصنيف بعض الأعمال الروائية ضمن فئة أدب الدعاية الهادف الى اقناع قرائه بمفاهيم أيديولوجية محددة.ولعل واحدة من أكثر الروايات التي اشتهرت بين القراء والنقاد على حد سواء بوصفها أنموذجاً لأدب الدعاية السياسية،هي رواية (الأم) للأديب الروسي(مكسيم غوركي)(١٨٦٨-١٩٣٦)م.فهل تنطبق حقاً مواصفات السلوك الفكري والاجتماعي الهادف الى الاقناع السياسي،على هذه الرواية؟

بدأ غوركي كتابة روايته هذه في تموز ١٩٠٦م،وأنجزها في أوائل كانون الأول من العام نفسه.ثم عاد الى تنقيحها مرات عدة في الأعوام ١٩٠٧ و ١٩١٣ و١٩٢٢،ولعل ظروف القمع السياسي التي أعقبت هزيمة الحركة العمالية في ثورة ١٩٠٥ في روسيا،كانت الدافع الأساسي المحرك لكتابة هذه الرواية،إذ أراد غوركي أن يحفز شجاعة الثوريين المحبطين بأن يوضح لهم محتوى معركتهم وآفاقها،فكتب (الأم) بسرعة دعت لينين الى الثناء على غوركي،بقوله: (لقد أحسنت إذ أسرعت.إن كتابك هذا مفيد لأن الكثير من العمال أسهموا في الحركة الثورية دون وعي حقيقي.إنهم أسهموا فيها غريزياً،أما الآن فسيقرأون "الأم" وسيجنون منها الكثير).ثم أضاف: (هذا الكتاب تلح اليه الحاجة آنياً).

وقد لجأ غوركي في اسلوبه المتبع في هذه الرواية (عفوياً أو قصدياً) الى العديد من تكنيكات الاقناع ذات التأثير السيكولوجي الفاعل،إذ استخدم مثلاً ما يسمى بـ(قوالب التفكير النمطي) Stereo-type،أي وصف الشعوب والجماعات بأوصاف نمطية محددة يشتهرون بها،كما لو أن جميع أفراد الشعب أو الجماعة يمتلكون هذه الخصائص على نحو مستقر أو جامد في شخصياتهم.لذا نجده يطلق على الأغنياء وصف "البرجوازيين" أو "الطبقة الارستقراطية" في محاولة للإيحاء بغلبة الطابع الطبقي على الشخصية البشرية.كما اتبع أيضاً اسلوب (الانتقاء) Selection باختياره للموضوعات والمواقف التي تسمح له بإبراز ايديولوجيته السياسية عندما ركز بشدة على ابراز معاناة الشعب المتمثلة بطبقتي العمال والفلاحين.ووظف اسلوباً آخر يشيع بين رجال الدعاية هو اسلوب (التكرار) Repetition،إذ تكررت في أماكن مختلفة من الرواية عبارات مثل: (عاش العمال في كل وطن)/(عاشت الحرية)/(لتسقط الاوتوقراطية)/(عاش حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي).ومارس أيضاً اسلوباً اقناعياً مهماً في هذه الرواية هو (الحزم في الطرح) Assertion،إذ يتطلب الأمر من رجل الدعاية أن يعتاد طرح آرائه بصورة حاسمة بما يخدم غاياته متحاشياً اسلوب المناظرة وتبادل الحجج،فنجده يقول: (يجب على المرء أن يسير مع الحقيقة حتى لو كان على حافة قبره)/(الحقيقة يجب أن تكون بالنسبة لنا أهم من الخبز،هذه هي القضية).

كما استطاع غوركي أن يتحاشى الظهور أمام أقرانه بمظهر الغريب عنهم،فعمد الى استخداد اللهجة العامية بعبارات مقتبسة من الحياة اليومية.وكثيراً ما كان يتحدث بصيغة "نحن" (نحن الذين نبني الكنائس،ونقيم المصانع،ونحن الذين نصنع السلاسل ونصهر النقود:نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعاً الخبز والملذات من المهد الى اللحد.من ينشد خيرنا؟من منهم يعاملنا كبشر؟لاأحد!).ووظف أيضاً اسلوب (تقديم القرائن والأدلة) Testimony ليسند طروحاته الفكرية،فكثيراً ما يستثمر رجل الدعاية أسماء الشخصيات أو مؤسسات رفيعة المستوى ليتسنى له من خلالها تأييد فكرة ما أو انتقادها؛فمثلاً في محاولته تمجيد فكرة (التضحية من أجل القضية)،يكتب غوركي: (يجب أن نموت ليبعث العالم،يجب أن تموت الآلاف لتحيا الملايين على الأرض كلها).ثم أسند ذلك بمقولة السيد المسيح (ع) عن حبة القمح: (ينبغي أن تموت لتبعث في سنبلة جديدة!).وفي سعيه للتبشير بضرورة الثورة،كذلك نجح غوركي في استثمار مشاعر (الاحباط) Frustra-tion لدى قرائه من أبناء الطبقات الكادحة،ليؤجج لديهم الأحقاد نحو مستغليهم،لذا نراه يلقي باللوم على "الأسياد" وأرباب العمل بوصفهم سبب معاناة الشعب: (يقول لك ربِ العمل:إكدح أنت،إكدح ما استطعت لأكسب أنا الثروة من جهدك،فأقدمها لعشيقتي في إناء من ذهب)/(لماذا يقتلون الشعب؟لماذا يعذبوننا؟إنهم يفعلون ذلك ليمزحوا أو يمجنوا أو يمتعوا أنفسهم على هذه الأرض ليشتروا بدمنا كل شيء!).

قد يعترض النقاد الحداثويون على هذا النوع من الأدب الروائي المباشر،فيصفونه بالفجاجة والسطحية،إلا أن للنفسانيين رأياً آخر،لأن رواية مثل (الأم) نجحت في إلهاب حماسة أجيال من الكادحين والمثقفين في العالم،وحققت أثراً تحريضياً فاعلاً في السلوك الثوري لملايين الناس ممن عايشوا رومانسية الحلم الثوري الأحمر في القرن العشرين.